«فراغ» ايزنهاور ...

بقلم رئيف خوري

الشعوب العربية تنهض ، تسير قدماً في طريق التحرر والسيادة والوحدة . وليس هدف التحرر والسيادة والوحدة جديداً في وجود الشعوب العربية وتمرساتها بالاحداث . انه قديم بقدم خفقات الشعور القومي في سرائر هذه الشعوب . الشيء الجديد حقاً ان هذا الهدف ، هدف التحرر والسيادة والوحدة لم يبق حلماً ضبابياً غامضاً ولا امنية بعيدة . لقد أصبح إمكاناً في عالم المستطاع . ولقد تحسست الشعوب العربية هذا الامكان . تحسسته بعمق وقوة ، وابصرت سبيلها اليه واضحة مفصلة المعالم . وايقنت ان في قدرتها ان تجسده واقعاً حياً أملأ حياة .

لقد تغيرت الشعوب العربية واحوالها تغيراً لا قشرياً بل جذرياً . اصبحت لا تنظر الى الاستعمار كأنه نظام ابدي لا يزول . بل اصبحت ترى السوس الذي ينخر في جسم هذا « الجبار » ويقربه من يوم حتفه . اصبحت لا تهاب الحديد والنار ، ولا يبهرها سلطان المال ، ولا يعمى عليها قصد دس او تفرقة باسم عنصر او دين . وأصبحت اشد ثقة بالنفس ، واثبت اعصاباً على تهويش الخصم وتهويله ، واوفر حظاً من الادراك السياسي ، ومن الجرأة على انفاق الدماء في حينه لابد من انفاق الدماء . واصبحت اكثر انجاباً للقادة الاحرار الذين يجمعون بين المرونة والصلابة والتروي والاقدام ، كما اصبحت اجسر على نقد ذاتها وعلى مواجهة عللها وآفاتها ، وفضح المتآمرين والمتخاذلين ولو طلوا انفسهم بطلاء الوطنية او الدين ، وادعوا الاتكاد على « ماض حافل بالخدمات » . ولزمت فكرة الاصلاح الداخلي وعي هذه الشعوب ، فالتحرر والسيادة والوحدة ليست اليوم عندها مجرد اشكال ولا واجهات منصوبة للخارج ، بل هي رفاه وثقافة للمواطنين ، وقوة اقتصادية وعسكرية ، وبنيان اجتماعي على اسس العمل والعدالة والمساواة .

أجل ان الشعوب العربية لتنهض وتسير قدماً في طريق التحرر والسيادة والوحدة . الدلائل المقنعة ، لكل من يريد ان يستدل ، تومىء الى ذلك وتثبته يقيناً ، لكل من يريد ان يستقين : صفعة مصر للغزاة الذين طلبوا من عجلة التاريخ ان تتقهقر ؛ يقظة سوريا وردكيد المتآمرين على استقلالها في نحرهم ؛ وثبة الاردن للانعتاق من قيد المعاهدة البريطانية الاردنية والاستعاضة عما يسمى المساعدة البريطانية بالمساعدة الاخوية العربية ؛ تعاظم تيار المقاومة الجزائرية ؛ توثق عرى الانسجام والتضامن بين مصر وسوريا والسعودية والاردن ؛ تمصير البنوك الاجنبية في مصر ؛ اخفاق الاستعمار في اثارة الفتن الطائفية ؛ الى غير هذه الظاهرات السعيدة التي تلوح مشرقة في افق الوجود العربي وتبشر بمنطق جديد .

حقيقة من الحقائق الكبرى في الدنيا اليوم ، ان الشعوب العربية تتقدم بخطى سريعة ثابتة نحو تحررها وسيادتها ووحدتها . وقد باتت هذه الحقيقة عاملا محسوساً من العوامل الموجهة في سياسة الدول العظمى نفسها . وبات تحرر الشعوب العربية وسيادتها ووحدتها لا امكاناً في عالم المستطاع فقط — كما اسلفنا القول — بل ضرورة ملحة في عالم الواقع .

ولم ؟

لأن عالم ما بعد الحرب قد انشطرت فيه الدول العظمى الى قوتين هائلتين مصطرعتين ، تارة في شيء من الاحتراس والتستر ، وطوراً في شيء من الحدة والعلنية وقعقعة السلاح — واي سلاح فتاك ! — مما ينذر بتفجر شامل يبيد البشر والحضارة .

مع ان الوعد الذي وعده العالم بعد الحرب ان يسود سلام موطد الاركان طويل المدى ، وان يبدأ عهد من البناء والرخاء للشعوب ، وان تستكمل امم الارض — صغيرها وكبيرها — اسباب استقلالها وسيادتها وحريتها ، وان تنشأ بين الدول جميعها علائق الصداقة والمساعدة المتبادلة على قواعد من المساواة والاعتراف بالحقوق .

وهذه الحالة التي نجد عليها العالم اليوم من انشطار بين الدول العظمى الى قوتين هائلتين مصطرعتين ، تزيد في وجوب تحقيق الوعد الذي وعدته شعوب العالم بعد الحرب أن يعم السلام ، وان تستقل الشعوب جميعاً ، وتتكسر عنها الانيار ، وتخضع العلائق فيما بينها لمفاهيم الصداقة الصحيحة المستقيمة .

ولا تحقيق لذلك الوعد الا بشرط أولي هو ان يزول الاستعمار بجميع صوره ما كان منها ناشئاً عن الطمع في استثمار الرساميل او الرغبة في نشر العقيدة وفرض الوصاية من « راشد » على « قاصر » ومن « كبير » على « صغير » .

صور الاستعمار كلها تولد الحرب ، وبالتالي تسوق العالم الى الكارثة وتجبله بدماء بنيه وتدفن الحضارة في الانقاض .

والبقاع العربية هي من البقاع التي بليت بالاستعمار . وهي من البقاع التي تريد طرد الاستعمار واستئصاله وتطهير ارضها من رجسه . وبعض هذه البقاع العربية قد قطع فعلا ، في هذا السبيل ، شوطاً مرموقاً .

والبقاع العربية تحتل موقعاً حساساً بين القوتين المصطرعتين ، في العالم اليوم . وكل من تينك القوتين يطمع في هذه البقاع العربية ، ويشتهيها قنة له يتصرف بها تصرف المالك المطلق .

ولكن احدى القوتين ، القوة السوفياتية على التحديد ، هي في وضع يكفيها معه ان لا تكون البقاع العربية محتلة للقوة الاخرى ، او دائرة في فلكها او منجرة في ركابها .

فاما القوة الاخرى ، قوة الاستعمار الغربي ، فيبدو انها لا يكفيها ان تكون البقاع العربية غير محتلة للقوة السوفياتية او منجرة في ركابها او دائرة في فلكها . انها تريد هذه البقاع العربية مراكز استراتيجية ، مسخرة لها

بكل طاقة فيها . والبراهين جميعها تثبت اننا لا نلقي الكلام جزافاً . لقد ايدت دول الاستعمار الغربي نشأة اسرائيل وهي اليوم تدللها وتضريها ، وتحالفها ، وترضى ان يرتدي جنودها بدلات اسرائيلية ، وذلك كله على اعتبار اسرائيل قاعدة مأمونة لها في قلب البقاع العربية . ولقد نظرت دول الاستعمار الغربي بعين الريبة الى كل خطوة تخطوها اية بقعة عربية في طريق السيادة والوحدة والتحرر . بل لقد أحرج بعض هذه الدول فلم يتورع عن الاعتداء السافر ، الفاشل ، على جمهورية مصر العربية ، لانها امت شركة للملاحة ! ولولا روعة المقاومة المصرية ، وغضبة الضمير العربي ، والضمير العالمي الممثل بالامم المتحدة ، لولا حبوط الاعتداء ، لأن نجاحه لم يكن ممكناً بغير غمس الدنيا في مجزرة شاملة ، لما تورعت هذه الدول نفسها ومن مالأها عن افتراس سوريا الجمهورية وربما بحجة انقاذها من اسرائيل !

ولا حد للذرائع التي تتذرع بها دول الاستعمار الغربي ، لمحاولة انشاب اظفارها في جسم البقاع العربية جمعاء . ولن نقف هنا لنعدد هذه الذرائع ، ولكننا نكتفي بذكر آخرها واحدثها ، نعني نظرية الفراغ التي طلع بها علينا الرئيس الأميركي ايزنهاور !

ولكن ما عسى ان يكون هذا الفراغ بالضبط ؟ انه خروج بريطانيا وفرنسا من الشرق الأوسط . وبعبارة اخرى أصرح وأوضح : هو جلاء الاستعمار البريطاني العسكري ، والاستعمار الفرنسي العسكري ، عن مصر وسوريا ولبنان . وهو سعي الاردن لانهاء عهد المعاهدة البريطانية الاردنية والاستعاضة بالمساعدة العربية عما يسمى المساعدة البريطانية . هو التضامن العربي ، بين مصر وسوريا والسعودية والاردن . ويبدو ان قيام اسرائيل لايكفي لسد هذا الفراغ ... هذا الفراغ الذي يتسع ، بحسب المحصل من كلام الرئيس الاميركي ، كلما انبعثت الشعوب العربية نحو انجاز تحررها وسيادتها ووحدتها .

والرئيس الأميركي حين يقتنع بهذا المنطق الذي لا يقنع أحداً فانه لا يحتج بشيء كما يحتج بالحاجز الذي يجب ان تنصبه القوة التي يمثلها ، قوة الاستعمار الغربي ، في وجه القوة الاخرى : القوة السوفياتية أو القوة الشيوعية .

ونحن قد اعلناها مرة ومرة على رؤوس الاشهاد أننا لا نريد ان نكون مرتبعاً للقوة الشيوعية ترتع فيه . ولكننا في الآن نفسه نأبى ان نكون مرتبعاً ترتع فيه دول القوة الاخرى : دول الاستعمار الغربي .

ولكن يبدو اننا مهما اذعنا ذلك ورددنا ه واكدناه ، فدول الاستعمار الغربي لا تصدق . انها تعتقد ، جادة او هازلة ، بان التحرر والسيادة والوحدة العربية معناها فراغ تسرح فيه القوة الشيوعية وتمرح . ولذلك لا تتشبث بقعة عربية بحقها الطبيعي ان ترفع عنها نير الاستعمار الغربي ، وان تستقل وان تتقرب من شقيقاتها العربيات ، الا اصبحت في نظر دول الاستعمار الغربي قاعدة شيوعية . هي قاعدة شيوعية ، لانها تكره اسرائيل المعتدية ، ولاتصالح الصهيونية التي تنوي المضي في اعتدائها . وهي قاعدة شيوعية لانها تشتري السلاح ، وتتقوى به ، ممن يبيعها السلاح لتحمي عنقها من سكين الذباح . وباختصار ، اما ان تكون الاوطان العربية مختلة تحت دول الاستعمار الغربي ، او هي شيوعية ، أو هي ، على الأقل — بتعبير ايزنهاوري الملطف — تخلق فراغاً يجب سده بقوى اميركية ان لم يسد بقوى دول اخرى بعد ما سودت هذه وجهها تسويداً .

شد ما يختلف منطق الرئيس الأميركي عن منطقنا . ان نقطة الابتداء في منطق الرئيس الأميركي مناوأة الشيوعية . ونقطة الابتداء في منطقنا هي التحرر والسيادة والوحدة . وبهذا المقياس وحده ، مقياس الاعتراف لنا بحقنا الطبيعي ، حق التحرر والسيادة والوحدة ، نقيس صداقة الدول لنا وسواء كانت شيوعية شرقية ، أو آسيوية افريقية ، أو ديمقراطية غربية . ولسنا نقبل ، على اي حال ، ان تعني مناوأة الشيوعية ، مناوأة لحقنا في تطهير ارضنا من رجس الاستعمار وفي السيادة والتحرر والوحدة .

والا فأي مناوأة للشيوعية هي هذه التي تقود الى ضرب بور سعيد وتقتيل الأطفال والنساء والشيوخ وقذف الكنائس والمساجد ، لأن جمهورية عربية اشترت سلاحاً ، لتدافع عن نفسها ممن باعها السلاح ، او أممت شركة الملاحة في قناة تملكها منذ أن حفرت القناة ومنذ ان قضى الله بان تكون في الأرض مصر ؟!

الحق ان السيادة الوطنية والتحرر والوحدة لا تعني فراغاً تسرح فيه الشيوعية وتمرح ، بل هي اقوى حصن لدحر الشيوعية وإفشال منطقها .

وبعد هذا ، فالتحرر والسيادة والوحدة للشعوب العربية هي من الضرورات الملحة لاقصاء القوتين الهائلتين المصطرعتين في العالم ، عن ميدان من ميادين الصراع بينهما ، وبالتالي هي ضمان من ضمانات السلام العالمي الذي وعدته شعوب الأرض .

وبعد هذا وذاك ، وفوق هذا وذاك ، ان البلاد العربية هي اوطان لشعوبها لا مراكز استراتيجية لأحد .

اترى الرئيس الأميركي يطمع حقاً في أن يقنع إنساناً حين يتحدث عن هذا الفراغ الذي خلقه خروج فرنسا وبريطانيا من الشرق الاوسط ليقترح ، من بعد ، حشو هذا الفراغ بالاحتلال والقيود والأنيار ، والبارود المنذر بالانفجار والدمار ؟

ان أميركا لم تشارك بريطانيا وفرنسا واسرائيل في الاعتداء الفعلي على مصر لانها تهيبت أن تثيرها حرباً عالمية يخوضها الاتحاد السوفياتي وقد ظهر أمام العرب وأمم الأرض بمظهر المقاوم للعدوان المدافع عن الشعوب . وحق اميركا أن تتهيب برغم ما قصدت اليه بريطانيا وفرنسا واسرائيل من احراجها . لأن الذي يخوض الحرب الى جانب المعتدي يكون قد خسر المعركة الأدبية . وخسارتها المعركة الادبية هي خسارة نصف المعركة سلفاً !

لكن أفضل من هذا ، أن تنبذ أميركا فكرة الحرب على الاتحاد السوفياتي او غيره ، وأن تنفي عنها فكرة الفراغ الذي يحدثه خروجها او خروج غيرها من دول الغرب من كل ارض ليست لها . افضل أن تسلم أميركا بأن أرض كل شعب هي له ، وهو خير من يسد « الفراغ » فيها . الهنود واليوغوسلاف افضل من سد « الفراغ » في ارضهم . وكذلك الشعوب العربية ، هذه الشعوب التي تؤلف عودتها الى مسرح التاريخ حقيقة كبرى من حقائق السياسة في هذا العصر !

رئيف خوري

روايات واساطير وقصص

١ — الاعدام لخليل تقي الدين ، ٢ — اوسكار وايلد لالياس ابو شبكة ، ٣ — تاريخ جرح لفؤاد الشايب ، ٤ — القصص اللبناني لنخبة من الأدباء . ٥ — منشود لنسيب عازار ، ٦ — الحب اقوى لرئيف خوري ، ٧ — اساطير شرقية لكرم البستاني ، ٨ — من اعماق الجبل لصلاح لبكي ، ٩ — حورية البحر لمحمود تيمور ، ١٠ — ليلة القدر لاحمد مكي ، ١١ — في قصور الخلفاء لصلاح الدين المنجد ، ١٢ — ضحون ملونة لرئيف خوري ، ١٣ — الناس والآخرون لقدري قلعجي .

تطلب هذه الكتب من دار المكشوف ، بيروت